صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للأستاذ صـــلاح الدين المنجد

— ١ —

درج الناس فى العصر العباسى على تقديم الهدايا للخلفاء ، ونلاحظ أن هذه الهدايا كانت تقدم فى النيروز والمهرجان ، وفى الفصد ، وفى العودة من الحج ، هذا عدا الهدايا التى كانت تحملها الرسل الواردة على الخليفة من الولاة والأمراء ، أو من ملوك الروم

أما الهدايا فى النيروز والمهرجان ، فعادة فارسية أخذها العرب عن الفرس منذ فجر العصر الإسلامى . ويقول الجاحظ إنها كانت معروفة زمن معاوية ، وظلت كذلك طول عهد الأمويين ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطلها . فلما دالت دولة الأمويين ، وقامت دولة العباسيين ، عادت هذه العادة إلى الناس ، وصارت فرضاً عليهم نحو الملوك

ويبين الجاحظ العلة فى تقديم الهدايا فى النيروز والمهرجان فيقول : « وإن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعلة فى ذلك أنهما فصلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إيذان بدخول فصل الحر »

« ومن حق الملك أن تهدى إليه الخاصة والعامة ، والسنة فى ذلك عندهم أن يهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان فى الطبقة العالية ، فإن كان يحب المسك أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزّة ولبسة أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان من الشجعان والفرسان ، فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك ، وكانت عليه متأخرات أو بقايا للسنة الماضية جمعها وجعلها فى بدر حرير صينى وشريحات فضة وخيوط ابريسم ... ثم وجهها . وكان يهدى الشاعر الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه . ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها ، أن تهديها إليه بأكمل حالاتها ، وأفضل زينتها ، وأحسن هيأتها . فإذا فعلت ذلك ، فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها فى الكرامة[1] » .

وعاد الجاحظ فى المحاسن والأضداد ففصل ما أجمل . قال : وجعلوا شعارهم : كل يهدى على قدره . فكان القواد يهدون النشاب والأعمدة المصمتة من الذهب والفضة . والكتاب والوزراء والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر ، وجامات الفضة الملوحة بالذهب . والعظماء والأشراف يهدون البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود . وربما أهدى الرجل الشريف سوطاً . وكانت الحكماء يهدون الحكمة والشعراء الشعر ، وأصحاب الجوهر الجوهر ، وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهرى النادر . والظراف قرب الحرير الصينى مملوءة ماء ورد . والمقاتلة القسى والرماح والنشاب . وكانت نسوة الملك تهدى إحداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة ، والأخرى الدرة النفيسة والجوهرة الثمينة ، وفص خاتم ، ومالطف وخف . وأصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والديباج وغير ذلك

وسيرى المتتبع لتاريخ جحا وما نسب إليه من أخبار كيف سلك المتحدثون عنه مثل هذا المنهج ، أو قريب :

فتلوا لنا جحا فى صورة فيلسوف ، وجحا فى صورة أبله ، وجحا فى صورة قاض ، وجحا فى صورة متقاض ، وجحا فى صورة سارق ، وجحا فى صورة مسروق ، وجحا فى صورة ذكى وجحا فى صورة غبى ، وجحا فى صورة فقير ، وجحا فى صورة غنى ، وهكذا .

وقد أصبحت كلمة « جحا » كافية فى التعبير عن هذا كله — كما ترون — فلا غرو إذا اجتزأنا بها فى الحديث اقتصاداً للوقت ، واختصاراً للبحث فى التفاصيل المملة ، والشروح المستفيضة التى عرضنا لها فى غير هذا المقام .

فاضل كيلانى

(١) انظر التاج ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

والصيارفة نقر الذهب مملوءة بالفضة ، وجامات الفضة مملوءة دنانير[١] .

وكان للهدايا كاتب خاص ، يكتب اسم كل مهد ، وجائزة كل من يجيز الملك على هديته ليودع ديوان النيروز[٢] مهما كان شأن الهدية ، صغرت أم كبرت ، كثرت أم قلت . فإذا أهدى أحدهم الملك هدية ، ثم لم يخرج له من الملك صلة ، عند نائبة تنوبه ، أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتى ديوان الملك ويذكر بنفسه[٣] .

ويذهب آدم متز إلى أن المهرجان كان يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان[٤] ، ولا وجه لتمييز المهرجان من النيروز وقد رأيت أن الجاحظ جعلهما سواء ، وذكر هدايا المهرجان ، وهدايا النيروز[٥] . وقد كان النيروز عيداً قومياً ، يحفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالقصائد والهدايا[٦] .

* * *

ولنر الآن أنموذجات من هذه الهدايا ، فى ضروبها وأصنافها .

فقد أهدى المنصور الوصائف من الرجال . حدث الفضل بن الربيع عن أبيه قال : كنت فى خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ففرقنا فى خدمته[٧] .

وأهدت جارية إلى المهدى تفاحة ، فأعجب بهذه الهدية وقال :

تفاحـــة من عند تفاحة جاءت فاذا سميت بالفؤاد
والله ما أدرى أأبصرتها يقظان أم أبصرتها فى الرقاد[٨]؟

ولما عشق أبو العتاهية عتبة ، جعل هديته إلى المهدى وسيلة لوصالها . فقد ذكر المبرد أن أبا العتاهية استأذن فى أن يطلق له أن يهدى إلى أمير المؤمنين فى النيروز والمهرجان . فأهدى له فى أحدهما برنية ضخمة فيها ثوب ناعم وطيب ، قد كتب على حواشيه :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة الله ، والقائم المهدى يكفيها
إنى لأيأس منها ثم يطمعنى فيها احتقارك للدنيا ومافيها[١]

وحدث ابراهيم بن المهدى قال : كنت عند الرشيد ، فأهديت له أطباق ومعها رقعة . فلما قرأها استفزه الطرب . فقلت : يا أمير المؤمنين ما الذى أطربك ؟ قال : هذه هدية عبدالملك بن صالح . ثم نبذ إلى الرقعة فإذا فيها : « دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً أفادنيه كرمك ، وعمرته بنعمتك ، وقد أينعت ثماره وفاكهته . فأخذت من كل شىء وصيرته فى أطباق القضبان ، ووجهته لأمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه ، مثل ما وصل إلى من بركة عطائه[٢] ». قلت وما فى هذا ما يقتضى هذا السرور . قال ألا ترى إلى ظرفه كيف قال القضبان ، فكنى به عن الخيزران إذ كان يجرى به اسم أمنا .

ثم كشف المنديل فإذا بعضها فوق بعض ، فى أحدها فستق وفى الآخر بندق إلى غير ذلك من الفاكهة[٣] .

وأهدى أحمد بن يوسف للمأمون مرة ثوب وشى[٤] . وأهدى إليه مرة ثانية طبق جذع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش . وكتب إليه : «هذا يوم جرت فيه العادة ، بالطاف العبيد السادة ، وقد أرسلت إلى أمير المؤمنين طبق جذع فيه ميل[٥] » .

وأهدى عبد الله بن طاهر له فرساً ، وكتب إليه : « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب فى الصعداء ، ويجاوز الظباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدور جرى الماء[٦] » .

وهدية الخيل كانت معروفة من قبل . فقد أهدى الحجاج إلى عبد الملك فرساً[٧] ، وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر[٨] .

ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه الناس على أقدارهم

(١) المحاسن والأضداد ص ١٩٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .
(٣) التاج ص ١٤٩ .
(٤) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٨ .
(٥) المحاسن والأضداد ص ١٨١ .
(٦) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٠٢ .
(٧) الأغانى ج ٦ ص ٨٢ .
(٨) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٩ .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦
(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ١٢٦ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠
(٤) وفيات ج ٢ ص ٣٠٥ .
(٥) زهر الآداب ج ٢ ص ١٠٠
(٦) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠ .
(٧) المصدر السابق ص ١٩ .
(٨) المصدر السابق ص ٢١ .